توطئة

نقد الفكر العسكري

في الوقت الذي تقوم فيه الولايات المتحدة الأمريكية بتغيير رئيسها وإدارتها، يبقى العراق بعيدًا كل البعد عن بلوغ الاستقرار والديمقراطية التي كان يصبو إليها. بل على النقيض من ذلك، مر البلد في خلال خمس سنوات بكل مراحل الحرب مجرباً بالمعمعة خبايا الإرهاب الدولي وعبثية السياسة الطائفية.

هناك الكثير من الأقلام التي تكلمت عن هذا الوضع الذي أقل ما يُقال عنه إنه فوضوي منذ التدخل الأمريكي عام ٢٠٠٣م، غير أن هناك ندرة في التحليلات التي أبرزت الأسباب العميقة للفشل الأمريكي في العراق، ماعدا فريق دراسة العراق (Iraq Study Group) بقيادة جيمس بيكر في عام ٢٠٠٦م الذي أشار بأصابع الاتهام لمواطن الخلل الكبيرة وعدم الكفاءة اللغوية والثقافية التي لا تضاهى.

إن الهدف من هذه الدراسة هو تقديم بعض الإجابات للسؤال المزعج والملح أخلاقياً عن الفشل الأمريكي في العراق وبشكل أوسع في الشرق الأوسط، فالأسباب نفسها تحمل في طياتها النتائج نفسها. وهذا ليس تحليلاً سياسيًا متكررًا للوضع المحلي ولا للوضع الدولي، بل دراسة متفحصة ودقيقة لمواطن القصور البشري، والجهل وإقحام الجيش الأمريكي في منطقة ترجع ثقافاتها إلى آلاف السنين.

قبل الحادي عشر من أيلول عام ٢٠٠١م، لم تكن الثقافة، في أحسن الأحوال، إلا جزءًا من مكونات التواصل الضروري في التجارة والدبلوماسية. أما اليوم، فقد تغيرت المعادلة كلياً؛ فالثقافة التي أصبحت من جديد تمثل الهوية والدين هي أكثر من أي وقت مضى رهان حرب وسلام. إذ إن الجيوش، دون تجهيزها لذلك، ترى التوسع في مجال عملها ليبلغ مجالات لم تعرف بعد. فهي تضطلع بدور إنساني وأمني بحت في الكثير من البلدان التي تعيش حالة حرب. كما تساهم هذه الجيوش من خلال تواصلها في تحديد أطر الرأي العام المحلي والدولي. ومجمل القول: لم يكن تأثير

التدخلات العسكرية كبيراً لهذه الدرجة على العقول، علماً بأن هذه التدخلات كانت محدودة على أرض المعركة.

عندما كنت رئيساً لوحدة تحليل المعلومات الاستراتيجية في وزارة الدفاع الفرنسية فيما بين عامي ٢٠٠٣م و ٢٠٠٧م، كان يستحيل علي أن أغض الطرف عن الأحداث التي كانت تهز العراق. ولذلك، قمت بجمع وتسجيل منظم لكل شاردة وواردة تتعلق بالإشكالات اللغوية والثقافية في هذه الحرب. وعندئذ، دهشت خلال جمع المعلومات عندما لاحظت أن أول ضحايا الحرب هم المترجمون.

كان أولهم في ٢٢ مارس ٢٠٠٣م حسين عثمان، مترجم يعمل لدى قناة ITV الإخبارية، وذلك بعد دخول الجيش الأمريكي العراق بثلاثة أيام فقط. والقائمة لا تفتأ تزداد، في ظل عمليات أكثر دقة وتحديداً ومشاهد قصص تتناهى وحشيتها. وسوف أذكر هنا، بما تمليه الذاكرة أخلاقياً، أسماء بعض المترجمين المشهورين إعلامياً الذين أُغتيلوا خلال السنة الأولى من المعركة بين شهر مارس ٢٠٠٣م وشهر مارس ٢٠٠٤م، وهم: قمران عبدالرزاق محمد يعمل مترجماً تحريرياً في قناة BBC، وقُتل في ٦ أبريل ٢٠٠٣م، ودريد عيسى محمد يعمل مترجماً فورياً في قناة CNN، قُتل في ٢٧ يناير٢٠٠٤م، وعمر هاشم كمال يعمل مترجماً كتابياً في مجلة Time Magazine، قُتل في ٢٦ مارس ٢٠٠٤م، والقائمة طويلة. وحسب ما أدلت به وزارة الخارجية الأمريكية، فإن هناك أكثر من ١٥٠ ضحية خلال سنة واحدة.

كانت هذه القائمة المرعبة بمثابة صدمة كهربائية لي، وذلك لعدة أسباب، فعند حصولي، في بداية التسعينيات، على شهادة المترجم الفوري والمترجم التحريري لثلاث لغات: الفرنسية، والعربية، والانجليزية، كنت مقتنعاً بأن الترجمة عبارة عن وسيط ثقافي، وأن المترجم الفوري وسيط يكمن دوره في تسهيل الحوار والتبادل بين

الثقافات المترامية الأطراف. ويجدر القول بأنني تخرجت من مدرسة أنطوان بيرمان، وكان "التعرف على الغريب" يمثل لي عقدة التواصل التي لا تُحل في عصر العولمة.

لكن ابتداء من عام ٢٠٠١م، اجتاح ما يسمى بـ "صراع الحضارات" الشاشات والعقول. وسرعان ما اضطر "اللغويون" الأمريكيون إلى تحديد موقفهم، وتبعهم في ذلك، بقية المنتمين للمهنة خلال عدة أشهر، ووجدت نفسي أعيش في زمان آخر، حيث أقوم بتدريس فن ترجمة عصر آخر متوهماً وجود حوار بنّاء في حقبة الصورة والاتصال الرقمي، وذلك حتى سنة ٢٠٠٣م عند التحاقي في وزارة الدفاع.

في حرب العراق، دخلت فجأة مرحلة الذعر، واكتشفت الخطابات التي تثير مشاعر الخوف. وحتى عملية الترجمة كانت تعد مخاطرة، ناهيك عن الخوف الذي يبثه المحتوى والهدف من البيانات[١]. ولقد استخدمت كلمة "القاعدة"[٢] (كما هي في اللغة العربية) في النص وشعرت بقدر المسؤولية عند الشروع في الترجمة. كان هذا في كتاب (شهداء القاعدة) الصادر في عام ٢٠٠٦م، ومن ثم في كتاب (دليل تجنيد القاعدة) الصادر في بداية عام ٢٠٠٧م، وقبل ختم الثلاثية بكتاب (القاعدة تغزو المغرب العربي) الصادر في نهاية عام ٢٠٠٧م. إن الكتاب الأول عبارة عن ترجمة لحياة مرتكبي التفجيرات الانتحارية في العراق، أما الكتاب الثاني فهو عبارة عن ترجمة لكتابات من شأنها أن تفيد في غسل أدمغة الشباب، وأما الكتاب الأخير فهو عبارة عن تحليل نقدي لكافة الوثائق التي قام بنشرها جناح القاعدة في المغرب المغربي.

خلال ذلك الوقت، عزف الكثير من المترجمين عن الجلوس أمام أجهزة الحاسب الآلي للذهاب إلى الميدان مقتفين أثر جنود التحالف وجنود قوات حلف

---

[١] لتجنب الخلط، بيانات مفرد بيان. المترجم.

[٢] نسبة إلى منظمة القاعدة. المترجم.

شمال الأطلسي في العراق وفي أفغانستان. وكانت الظاهرة تشمل مترجمين فوريين من كافة الجنسيات. وكانت الأموال تتدفق بكثرة وكان ارتفاع الرواتب مدهشاً. وفي ظل نشوة تحقيق الديمقراطية وبرامج إعادة إعمار البلاد، كانت الهفوات متكررة على الرغم من الإخلاص الذي يظهره الجيش الأمريكي. فإن الطريق إلى جهنم مفروش بالنوايا الحسنة.

وحينذاك طُرحت بشدة مسألة "الخيانة": فالمقصود ليس خيانة روح النص الذي يُنقل بطريقة تقريبية، بل خيانة الفرد الذي أصبح "خائناً" حتى بعمله لصالح هذا الفريق أو ذاك. كان هذا حال المترجمين العراقيين الذي عملوا لصالح الأمريكيين، رغم أن هؤلاء الأمريكيين يُنظر إليهم على أنهم جنود اجتياح واستعمار. إنها فعلاً مشكلة ضميرية.

ختاماً، لم يكن موضوع الأمانة والخيانة المطروق منذ وقت طويل نظرياً أو افتراضياً، بل أصبح ملموساً و واقعياً عند آلاف الأشخاص. وما هذا الكتاب إلا إثبات لهذه التساؤلات المصيرية، وذلك بمقابلة من عانوا من ذلك يومياً في أجسادهم.